المنهج التجريبي الديني
في الدراسات القرآنية

الدكتور شبايكي الجمعي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . قسنطينة . الجزائر

ملخص:

لقد سجل البحث العلمي مستويات كبيرة من التحول والتطور خلال فترة الإنبعاث الحضاري الإسلامي، ارتكز اهتمام الدارسين فيها على جانب التأصيل والتنظير وتصحيح المفاهيم، لكن في العصر الحديث اتجه البحث العلمي نحو التجريب، فقد بات أكثر التصاقا بالظواهر واعتمادا على التجربة الحسية، ومنه تطور البحث الديني التجريبي بشكل رئيسي في نطاق علم النفس وعلم الاجتماع، وأصبحت الدراسات الدينية تتسم بطابع تجريبي أشد، حيث أصبحت تتناول السلوك الديني الفردي والجمعي كظاهرة تتطلب المعالجة أو التفسير، وفي ضوء هذا الاعتبار فإن البحث الديني التجريبي يسعى لفهم ذاك السلوك الديني ومن ثم محاولة دعمه أو رفضه.

ضمن هذه المفاهيم والخصائص المنهجية للبحث الديني التجريبي سعينا _ مجتهدين _ لحل إشكالية ركود الدراسات القرآنية برسم منهج علمي تجريبي، نخرج فيه من دائرة التنظير والتقعيد نحو التفعيل والتجريب، وذلك عبر المزاوجة بين الدراسات القرآنية ومنهج البحث في علم النفس وعلم الاجتماع الذي يستند إلى فرضية ويقوم على أساس التتبع والملاحظة والتجربة.

هذه المنطلقات الأساسية ستوسع من دائرة البحث في الدراسات القرآنية، كما تجعلها أكثر نفعا؛ لأنها تنطلق من الفرد والمجتمع كظاهرة سلوكية تستحق البحث، وتعود إليه في نهاية البحث بنظرية لتأكيد السلوك أو معالجته وإصلاحه، بالإضافة إلى أن هذا النوع من البحوث سيستوعب خطوات البحث الديني التجريبي الذي يرتكز على أدوات ضرورية كالإحصاء، والاستبيان، والوصف، والتحليل، والتفسير...

واستنادا إلى هذا الطرح، نجد أن البحث الديني التجريبي في الدراسات القرآنية يقودنا حتما إلى إشكالية اللجوء إلى علوم مختلفة ومناهج متعددة، حيث تستوقفنا عدة تساؤلات ذات صبغة معرفية تبحث في طبيعة الدراسات القرآنية، والمنهج الديني التجريبي.

منها:

1. **ما طبيعة الدراسات القرآنية، هل هي علم أداتي أم علم ديني أساسي؟**
2. **. كيف يمكن للدراسات القرآنية أن تستفيد من مناهج العلوم الأخرى؟**
3. **ما الفرضيات التي يمكن أن تكشفها طبيعة البحث الديني التجريبي في الدراسات القرآنية؟**
4. **. إلى أي مدى يمكن للدراسات القرآنية أن تساهم في دراسة الواقع ومعالجته؟**
5. **ما حجم التبادل المعرفي الذي يمكن أن يحدثه البحث الديني التجريبي بين الدراسات القرآنية والعلوم الأخرى؟**

هذه وأسئلة أخرى ثانوية حاولنا الإجابة عنها من خلال هذا المقال.

الحمد لله الذي أكرمنا بنور كتابه وأرسل لنا محمد بن عبد الله معلما وهاديا إلى صراطه أما بعد...

تمهيد

منذ زمن طويل والفكر الإنساني المسلم يحصر نفسه ضمن واحدية النظرة أو المذهب فلا يسعى إلى التحرر والتعددية، ومنذ زمن طويل وهو يبدي ثقته التامة بالنتائج الأولى دون أن يبذل جهدا لإحداث أدنى تصادم أو هزات معرفية معها، ومنذ زمن طويل وهو يُكسب الذات العارفة الأولى صفة التعالي عن السياق التاريخي فلا يملك نقدها أو الشك والاحتمال فيها، ومنذ زمن طويل والمفكر المسلم في الدراسات القرآنية بالخصوص يقنع نفسه بأن علومه وُلدت صحيحة كاملة خالية من الفجوات أو التناقضات والمفارقات، فلا يرى ضرورة للبحث عن آليات وأدوات ومناهج جديدة لها.

كل ذلك أدى إلى جمود الدراسات القرآنية وعدم الإحساس بالقلق المعرفي الذي يبعث على السؤال والبحث، أو السعي إلى إحداث التوازن والاستقرار.

لكن في ظل التطور العلمي الكاسح الذي شمل علوما عدة كالفيزياء والطب والرياضيات والفلك والجيولوجيا وغيرها من العلوم الطبيعية، وانعكس إيجابا على الفكر الفلسفي والعلوم الاجتماعية واللسانية، بات مشروعا أن يسأل

أي عالم أو باحث في العلوم الدينية الإسلامية عن مفهوم الحقيقة العلمية وكيفية حدوث التطور العلمي.

وحسب نظرية النمو المعرفي لجون بياجي[1] من الخطأ الكبير الاعتقاد بأن تجميع وتكديس ركام من المعلومات والمعارف كفيل لوحده بأن يحقق تطورا علميا، ما لم يكن هناك شعور بالقلق المعرفي أو ما يسمى باللاتوازن من أجل الشروع في البحث عن التوازن وهي المرحلة الأولى من مرحلة النمو المعرفي.

إشكالية الموضوع : إن الموضوع الذي اخترناه صعب وخطير في آن واحد، حيث يتناول قضية كبيرة لها جذور في التاريخ الإسلامي، وانشغل بها جهابذة المسلمين منذ زمن بعيد لتعود مرة أخرى فتطرح على طاولة البحث والنقاش، ربما لنفس الأسباب والدوافع الأولى التي جعلت علماء المسلمين لمدة طويلة يناقشون العلاقة بين العقل والدين، ومن بين تلك الأسباب والدوافع ترجمة التراث اليوناني ومحاولة الرد على الأفكار المستوردة منه والدفاع عن الدين، وها نحن مرة أخرى نقف نفس الموقف من مسألة الدين والمنهج التجريبي لذات الأسباب والدوافع تقريبا، فإذا كان تمجيد المنهج التجريبي خصيصة التصور العلمي في هذا العصر، بما حققته العلوم الطبيعية من نجاح وتطور كبيرين بفضل استخدامها له، فإن من العلماء من قصره على النظر في الكون الطبيعي والإنسان، دون أن يقحموه في ميدان الإلهيات، فكانت لهم آراء في طبيعة المنهج التجريبي وحدوده ووظيفته وصلته بالعلوم الإنسانية والدينية على السواء.

ومن ثم فإن الوعي بقيمة المنهج التجريبي وراهن الدراسات القرآنية يدفعنا إلى البحث عن إجابات للأسلة التالية:

1. هل باستطاعة المناهج المتداولة في الحقل العلمي أن تساهم في تطوير البحوث القرآنية؟
2. ما هي هوية الدراسات القرآنية؟ وما هي النطاقات العلمية التي تستوعبها البحوث القرآنية؟
3. ما هو المقياس الذي تعتبر به الدراسات القرآنية علمية؟
4. هل يمكن تحديدا تطبيق المنهج التجريبي على الدرسات القرآنية؟
5. هل باستطاعة المنهج التجريبي استيعاب جميع أنماط البحوث القرآنية؟

[1] . ينظر في هذا لشأن التطور المعرفي عند بياجه ل: موريس شربل، والنظرية البنائية لبياجي من كتاب نظريات التعلم لجورج أم غازدا، وريموند جي كورسيني ...

فرضية البحث:

يمكن المساهمة في تطوير الدراسات القرآنية عن طريق استخدام المنهج التجريبي في الأبحاث القرآنية.

أهمية علم المنهج في عملية التجديد:

المتأمل لبدأ تكوين العلوم والمعارف الإسلامية كالفقه والتفسير والحديث والكلام والفلسفة والتصوف وغيرها، يجد لها أسبابا مختلفة لنشوئها، كالصراعات المعرفية والمذهبية والسياسية من الداخل والخارج، التي استدعت إيجاد طرق منهجية سواء لصيانة ما هو موجود كعلم الحديث مثلا أو لتأسيس ما هو غير موجود كعلم أصول الفقه والفلسفة. وبتلك الوضعية ذات الصبغة التدافعية نشأت العلوم الدينية الإسلامية.

غير أن:

- الغياب الطويل للتحديات التي كانت تلعب دور العامل المنشط لعملية البحث والإبداع المعرفي.
- أضف إلى ذلك ظاهرة الوضوح والقطع التي تجلت "من خلال العامل الإيديولوجي في عملية الصراع كموقف دفاعي وتبريري لحفظ المذهب وتحقيق السياسة"[1]، حيث ساد الاعتقاد بأن العلوم الدينية الإسلامية قد ولدت صحيحة في مبادئها كاملة في معارفها منذ عصر التأسيس والتدوين.
- مع "وجود الحلقات المغلقة للمنظومات الفكرية المتنافسة"[2]؛ أو ما نسميه بالمغاليق المحكمة للنموذج، التي تحول دون مراجعة الجهاز المعرفي.

كل ذلك أدى إلى غياب النقد الذاتي للمنظومة الإبستيمولوجية وحصرها داخل دائرة اللامساس أو اللامفكر فيه. وأفقد الشعور بالحاجة للبحث في المنهج أو الالتفات إلى التجديد في القواعد، بالرغم من أن التفكير المنطقي – بشهادة تاريخ العلوم – بقتضي الظهور المتقدم للعلم عن المنهج الموضوع لإحكامه، كما هو الحال في علم أصول الفقه ومصطلح الحديث وقواعد التفسير والنحو والعروض... ، "فالعلوم حينما يراد لها الكمال فإنها مضطرة للعمل طبقا

[1] . مدخل إلى فهم الإسلام (الفكر الإسلامي: نظمه...أدواته...أصوله): يحيى محمد، الناشر: دار الانتشار، لبنان . بيروت . الطبعة الأولى (1999م)، ص:46.

[2] . المصدر نفسه: ص40.

لعلم الطريقة من أجل ضبط وإحكام التفكير فيها"[1].

الدراسة:

من خلال العنوان أرى من اللازم تعريف كلا من المنهج التجريبي والدراسات القرآنية بما يكفي فقط لتحديد طبيعة العلاقة بين الطرفين المذكورين.

ونبدأ **أولا بتحديد الهيكل العام للدراسات القرآنية:**

1) . مفهوم الدراسات القرآنية: ربما نجد التعريف الأنسب لما يصطلح عليه بالدراسات القرآنية أن نقول هي: (جميع المعلومات والبحوث التي تتعلق بالقرآن الكريم).

لكن هذا التعريف يثير لدينا إشكالية فصل ما اصطلح على تسميته بالدراسات القرآنية عن بقية العلوم الأخرى؛ فجميع البحوث والدراسات العلمية مهما بعدت أو قربت عن النص القرآني لها تعلق به ﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆﰇﰈﰉﰊﰋﰌﰍﰎﰏﰐﰑﰒﰓﰔﰕﰖﰗﰘﰙﰚﰛﰜﰝﰞﰟﰠﰡﰢﰣﰤﰥﰦﰧﰨﰩﰪﰫﰬﰭﰮﰯﰰﰱﰲﰳﰴﰵﰶﰷﰸﰹﰺﰻﰼﰽﰾﰿﱀﱁﱂﱃﱄﱅﱆﱇﱈﱉﱊﱋﱌﱍﱎﱏﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱘﱙﱚﱛﱜﱝﱞﱟﱠﱡﱢﱣﱤﱥﱦﱧﱨﱩﱪﱫﱬﱭﱮﱯﱰﱱﱲﱳﱴﱵﱶﱷﱸﱹﱺﱻﱼﱽﱾﱿﲀﲁﲂﲃﲄﲅﲆﲇﲈﲉﲊﲋﲌﲍﲎﲏﲐﲑﲒﲓﲔﲕﲖﲗﲘﲙﲚﲛﲜﲝﲞﲟﲠﲡﲢﲣﲤﲥﲦﲧﲨﲩﲪﲫﲬﲭﲮﲯﲰﲱﲲﲳﲴﲵﲶﲷﲸﲹﲺﲻﲼﲽﲾﲿﳀﳁﳂﳃﳄﳅﳆﳇﳈﳉﳊﳋﳌﳍﳎﳏﳐﳑﳒﳓﳔﳕﳖﳗﳘﳙﳚﳛﳜﳝﳞﳟﳠﳡﳢﳣﳤﳥﳦﳧﳨﳩﳪﳫﳬﳭﳮﳯﳰﳱﳲﳳﴀﴁﴂﴃﴄﴅﴆﴇﴈﴉﴊﴋﴌﴍﴎﴏﴐﴑﴒﴓﴔﴕﴖﴗﴘﴙﴚﴛﴜﴝﴞﴟﴠﴡﴢﴣﴤﴥﴦﴧﴨﴩﴪﴫﴬﴭﴮﴯﴰﴱﴲﴳﴴﴵﴶﴷﴸﴹﴺﴻﴼﴽ﴾﴿﵀ ﵁﵂﵃﵄﵅﵆﵇﵈ الأنعام: ٣٨.

ولحل هذه المشكلة ولكي يمكن حصر ما يصدق عليه منها مما اصطلح على تسميته بالدراسات القرآنية، سنضطر إلى اعتماد فكرة محمد واعظ زادة التي يذكر فيها بأنه يمكن تقسيم العلوم المتعلقة بالقرآن "إلى ثلاثة أقسام: علوم للقرآن، علوم في القرآن وعلوم حول القرآن .

1. علوم للقرآن: يستشف من هذا العنوان أن المراد منه جميع العلوم التي وجدت لخدمة القرآن وتمهيد الأرضية لفهمه ودرك معارفه أو اكتناه جوانبه الأخرى. كعلم المعاني والبيان والبديع والنحو والصرف ومعاني المفردات والمنطق والفلسفة... وهكذا علوم الفلك والنجوم والطب، وعلوم الحيوان والنبات وغير ذلك من علوم الإنسان، لا يخلو علم منها أن يكون الاشتغال به في نظر من اشتغل به من المسلمين، مقصودا به خدمة القرآن أو تحقيق إيحاء أوحى به القرآن.

2 . علوم في القرآن : وهي العلوم التي استنبطت من القرآن، وتُبين بنحو ما مفهوما من مفاهيم القرآن وتوضح أغراضه، كأنواع التفاسير وأقسامها، وعلم الفقه وعلم الكلام وعلم الأخلاق، وكافة العلوم الشرعية الأخرى

[1] . مدخل إلى فهم الإسلام: يحيى محمد،: ص47.

المستخرجة من القرآن بأي كيفية كانت[1].

3 . علوم حول القرآن : المقصود منه جعلُ القرآن محورا وموضوعا للبحث والتحقيق؛ كما هو الحال في الطب مثلا، إذ جعل جسد الانسان موضوعا ومحورا لهذا العلم. وذلك بأن يكون القرآن محور علم من العلوم يبين بعدا من أبعاده المختلفة بشكل واف ونحو كاف, هذا النوع من البحوث هو الذي يمكن أن يحمل ما اصطلح على تسميته بـ (علوم القرآن)، وهو الذي ألف فيه صاحب البرهان والإتقان ومناهل العرفان ...الخ[2].

إذاً ما نقصده بالدراسات القرآنية تحديدا هي: **جميع البحوث التي تجعل من القرآن محورا وموضوعا للبحث والتحقيق**.

ويصدق هذا التعريف على كل البحوث التي تبحث في القرآن سواء تعلق الأمر بعملية الفهم أو التقعيد له.

ثم إن تلك البحوث تختلف فيما بينها حسب الاعتبارات التي تتناول بها القرآن:

1. القرآن بوصفه كلاما دالا على معنى، وهو بهذا الوصف موضوعا لعلم التفسير الذي يتناول القرآن بالدراسة والبحث للكشف عن مدلولاته ومعانيه.
2. القرآن بوصفه مصدرا من مصادر التشريع، فيكون بهذا الوصف موضوعا لعلم الفقه وأصوله.
3. القرآن بوصفه آية النبوة، فهو بهذا الوصف موضوعا لعلم الإعجاز.
4. القرآن بوصفه كلام الله المتعبد به، فيكون بهذا الوصف موضوعا لكيفية قراءته وتلاوته.
5. القرآن بوصفه مصدرا للهداية الاجتماعية، فهو بهذا الوصف موضوعا للدراسات الاجتماعية...
6. القرآن بوصفه مصدرا لمعرفة المعبود، فيكون بهذا الوصف موضوعا لعلم التوحيد.
7. القرآن بوصفه كتابا، فيكون بهذا الوصف موضوعا للبحث عن أصله وجمعه ورسمه.
8. القرآن بوصفه نصا عربيا، فهو بهذا الوصف موضوعا لعلم اللغة والبلاغة والإعراب.

[1] . أختلف مع محمد واعظ زادة في اعتبار أنواع التفاسير وأقسامها من هذا القسم؛ لأن التفسير العلمي أو العقلي أو النقلي أو الاجتماعي وغيرها من الاتجاهات ما هي إلا تطبيقات خارجة على القرآن وليست مستنبطة منه وبالتالي لا يصح اعتبارها من العلوم التي وجدت أساسا في القرآن ويعمل الباحث على استنباطها منه.

[2] . ينظر تصدير محمد واعظ زاده الخراساني لكتاب نصوص في علوم القرآن: لعلي الموسوي الدارابي، الناشر: مجمع البحوث الإسلامية, إيران . مشهد . (2002)، ص1 وما بعدها .

وهكذا "فالقرآن الملحوظ بأي واحد من هذه الاعتبارات يقع موضوعا لعلم يتكون من بحوث خاصة به"[1]

2) . **الهدف من جعل القرآن محورا للبحث**: الانتفاع بعلومه ومعارفه وهدايته.

3) . **مادة البحث في الدراسات القرآنية**: القرآن نفسه.

4) . **منهج البحث في الدراسات القرآنية**: تعالج إشكاليات الدراسات القرآنية وفق المناهج الآتية:

أ. المنهج النقلي في قسم من مسائله.

ب. المنهج العقلي في قسم آخر من مسائله.

ج. المنهج التكاملي (النقلي والعقلي) في قسم ثالث من مسائله.

ثانيا: حول الممنهج التجريبي:

أصناف مناهج البحث:

مناهج البحث هي: "مجموعاً متناسقاً من العمليات المستعملة لبلوغ هدف أو مجموعة من الأهداف"[2]، أو قل باختصار هي: "مجموعة من العمليات المتناسقة للكشف عن الحقيقة". وتتعدد المناهج تبعا لاختلاف طبيعة الموضوع الذي نتناوله والمشكلة التي نعالجها، كما نلحظ اختلافا كبيرا بين الباحثين في تصنيف مناهج البحث، سببه يرجع إما إلى اعتبار بعض المناهج فروعا من المناهج التي يعتبرونها رئيسية، أو لاختلاف معيار التصنيف؛ فعلى سبيل المثال التصنيف الذي يعتمد الاختلاف في وسيلة البحث ليس هو نفسه الذي يستند إلى الاختلاف في طريقة البحث.

وبالتالي إن اختيارنا لتصنيف ما، على أنه هو التصنيف الصحيح، أو على أنه يلغي كل التصانيف الأخرى هو اختيار تعسفي، لأجل ذلك سنعتمد الاختلاف في الوسيلة كمعيار لتصنيف مناهج البحث، فينتج لدينا أربعة أصناف رئيسية وهي: المنهج التاريخي، المنهج العقلي (النظري)، المنهج العرفاني، المنهج التجريبي[3].

1. **المنهج التاريخي**: "يهدف المنهج التاريخي إلى إعادة بناء الماضي بدراسة الأحداث الماضية، معتدا

---

[1] . علوم القرآن: محمد باقر الحكيم الناشر: مجمع الفكر الاسلامي، إيران . قم . الطبعة: الثالثة (1417هـ)، ص:224.

[2] . مناهج العلوم الاجتماعية . منطق البحث في العلوم الاجتماعية .: مادلين غراويتز، الناشر: المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، سوريا . دمشق . ط. الأولى (1993)، ترجمة: سام عمار. ص: 10 . 11.

[3] . أصول البحث: عبد الهادي الفضلي، الناشر: دار المؤرخ العربي، لبنان . بيروت . ط. الأولى (1412هـ/1992م)، ص52.

في الأساس على الوثائق والأرشيف"[1]. وبالتحديد إنه يهتم بدراسة العينات التاريخية (وثائق وآثار) وذلك عن طريق تقييمها ونقدها، وثمة مفهومان للمعرفة التاريخية المقوصودة بالبحث:

الأول: هو معرفة أُحتُجِزت خلف أسوار الماضي، بينما يحاول الباحث في دراسته "إزالة الحاجز الزمني هنا عبر أدوات ومناهج معينة، والاقتراب من الحادثة التاريخية كي يراها كما هي. وكلما كان الاقتراب المذكور أكثر، كان معبرا على نحو واقعي أكبر، ومستتبعا لمعرفة تاريخية أدق"[2].

الثاني: هو أن لا يقصد بالمعرفة التاريخية إزالة الحاجز الزمني من أجل العودة إلى لحظة ولادة الحدث، بل "محاولة لرؤية الأمر التاريخي في مرآة الزمن...فالدراسة التاريخية هي اكتشاف لحدث أو فكرة تاريخية في تواصلها التاريخي وفي ظل آثارها ونتائجها والتحديات التي واجهتها ونظائرها...، وبحث عن معطيات وتواليها، بدلا عن ملاحظة تاريخها وأسبابها"[3] وبالتالي فالمقصود بالمعرفة التاريخية هنا هو استيعاب حراك الظاهرة في إطار الزمن.

وتتولى الدراسة التاريخية مستويين اثنين:

1. مستوى النقد الخارجي (التوثيق): "ويسمى أيضا بنقد الأصالة أو بنقد التنقيب"[4]، وفيه يتم إرجاع الحدث أو العينة إلى لحظة ولادتها، ومعرفة أصحابها الحقيقيين.
2. مستوى النقد الداخلي (التأويل): ويسمى كذلك " بنقد التأويل أو نقد المصداقية"[5]، ويتضمن التحقق مما جاء في العينة، فيختبر الباحث مثلا: " المادة المنتجة، وبأي قصد ولأي غرض تم إنتاجها وفي أي إطار عام يمكن وضع ما كتب في الوثائق أو الوثيقة، وماذا يمكن أن يعني ذلك بالنسبة إلى المعاصرين من تلك الحقبة الزمنية..." [6].

ولأن الطبيعة التاريخية هي السمة الغالبة في المعرفة الدينية، فقد اكتسى المنهج التاريخي أهمية بالغة في ميدان البحث الديني الروائي عند المسلمين، حيث مارسوا النقد والتقييم على مستويين اثنين:

---

[1] . منهج البحث العلمي في العلوم الإنسانية . تدريبات عملية . : موريس أنجرس، الناشر: دار القصبة للنشر، الجزائر . بيروت . ط.(2008م)، ص: 105.

[2] . مناهج البحث في الدراسات الدينية: أحمد فرامرز قراملكي، معهد المعارف الحكمية، لبنان . بيروت . الطبعة الأولى (1425هـ/ 2004م)، ص: 277.

[3] . المصدر نفسه، ص: 278.

[4] . منهج البحث العلمي في العلوم الإنسانية: مصدر سابق. ص: 105.

[5] . المصدر نفسه.

[6] . المصدر نفسه.

أ. توثيق الإسناد: عن طريق التأكد من نسبة الخبر إلى قائله "ويتأتى هذا بالاعتماد على أدوات خاصة بالبحث التاريخي. بالرجوع إلى المنهج الخاص في المجال المعرفي الخاص به، كعلم الرجال في دراسة أسانيد أحاديث الأحكام الفقهية، وتاريخ الرواة العاربة والحاضرة في دراسة اللغة والأدب"[1].

ب. توثيق المتن: ويقصد به التأكد من محتوى الخبر؛ "بمعنى التأكد من أن النص لم يدخله التحريف أو التصحيف أو الزيد أو النقص أو ما إلى هذه، أي أنه سليم من هذه وكما قاله قائله"[2].

في ضوء هذا التصور للمعرفة التاريخية يمكن قراءة الأحداث والظواهر الماضية، كما يمكن للمنهج الحديثي أن يفيد ويستفيد من المنهج التاريخي والمناهج الأخرى لتطوير تقنيات البحث الروائي، خاصة وأن هذا الأخير تعرض لكساد ونفقان كبير في حقل الدراسات الدينية الإسلامية، إذ لم يعرف نموا أو تطورا منذ زمن طويل، مكتفيا بنفس الطرق والوسائل والأدوات التي توصل إليها في بداية تكوينه.

2.المنهج العقلي (الاستدلال المنطقي، الاستدلال الرياضي) [3]:

لقد تعرض المنهج العقلي لعدوان منهجي خاصة في العصر الحديث من طرف الماديين الذين راحوا يشككون في منجزات العقل ويحلون الحواس محله (الملاحظة، التجربة، الاستقراء، المسح...الخ)، حتى أن الكثير من التقسيمات غيبته من قائمة المناهج البحثية التي أوردتها، إلا أنه ظل صامدا يشغل مرجعية هامة ضمن مناهج البحث المختلفة، إذ لا يمكنها أن تتأسس وتتقوم إلا به.

على هذا الأساس نحن لا نقصد بالمنهج العقلي: مجرد إعمال العقل، فذلك حاصل في كل المناهج كما أسلفنا، وإنما المقصود هو **اعتماد العقل كأصل فعال للوصول إلى الحقيقة أو تحصيل المعرفة**.

ويقوم "المنهج العقلي على قواعد علم المنطق الأرسطي، فيلتزم الحدود والرسوم في التعرف، والقياس والاستقراء في الاستدلال"[4]. فهو "يدرس موضوعات مجردة من كل مادة حسية، ولا يشترط أن توجد في العالم الخارجي

---

[1] . أصول البحث: عبد الهادي الفضلي، ص: 219.

[2] . المصدر نفسه.

[3] . يفصل بعض الباحثين بين الاستدلال المنطقي والاستدلال الرياضي، وهو صحيح إذا ما نظرنا لموضوع كل منهما، ولكن باعتبار أنهما يتبعان نفس المنهج الاستنتاجي نرى أنهما مكملان لبعضهما البعض تحت مسمى المنهج العقلي.

[4] . أصول البحث: عبد الهادي الفضلي، ص: 53.

حقيقة"[1]، ويترتب على هذا أن الباحث الرياضي أو العقلي غير مقيد بالظواهر والأحداث، بل موضوعاته يبتكرها هو ثم يقوم بتعريفها ولا يهمه إن كانت توجد حقيقة ما دامت ممكنة عقلا، " فمثلا يعرف عالم الهندسة المثلث بأنه سطح مستو محوط بثلاث خطوط مستقيمة تتقاطع مثنى مثنى، ثم يستنبط من هذه الخاصية بقية خواص المثلث، مهما اختلفت زواياه أو طول أضلاعه، وهكذا ينتهي إلى تقرير جميع القضايا الخاصة بالمثلثات، دون أن يكون في حاجة إلى استخدام البراهين التجريبية التي تستخدم في العلوم الطبيعية"[2].

فالمنهج العقلي يعتمد العقل، وموضوعاته عقلية بحتة لا يشترط أن تكون موجودة في الطبيعة، بل له الحرية في أن يبتكر ما شاء من الموضوعات ويستنتج منها ما شاء من القضايا ما دام يمكنه البرهنة منطقيا على صحتها.

تلك البرهنة التي تستند "بالضرورة إلى قضايا شديدة العموم التي نسلم بها دون أن نقيم عليها البرهان... وهذه القضايا العامة التي لا يمكن البرهنة عليها، والتي تتخذ أساسا للاستنتاج الرياضي تنقسم إلى الأنواع الآتية: الأولويات والبديهيات والتعاريف"[3]. وهي التي ينطلق منها العقل في حركته بين المعلوم والمجهول؛ حيث أن "الإنسان إذا واجه بعقله المشكل (المجهول) وعرف أنه من أي أنواع المجهولات هو، فزع عقله إلى المعلومات الحاضرة عنده، المناسبة لنوع المشكل، وعندئذ يبحث فيها، ويتردد بينها، بتوجيه النظر إليها، ويسعى إلى تنظيمها في الذهن، حتى يؤلف المعلومات التي تصلح لحل المشكل، فإذا استطاع ذلك، ووجد ما يؤلفه لتحصيل غرضه، تحرك عقله حينئذ منها إلى المطلوب، أعني معرفة المجهول وحل المشكل"[4].

هذا المنهج هو أكثر المناهج انتشارا في حقل البحوث الدينة الإسلامية وبخاصة منها الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام وأصول الفقه.

3. المنهج العرفاني:

المنهج العرفاني هو أحد المناهج المتبعة في الوصول إلى المعرفة اللاهوتية، إلى جانب المنهج العقلي والمنهج التاريخي، وهو منهج "يستند إلى القلب كمحور للكشف والمشاهدة التلقائية من غير نظر ولا استدلال، فهو يستفيض الحقائق ويستلهمها بنفسها عبر حدس يطلق عليه بالحدس الصوفي، وبذلك يكون القلب أداة معرفة لدى العرفان في

[1]. المنطق الحديث ومناهج البحث: محمود قاسم، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، مصر. القاهرة. الطبعة الثانية (1953، ص: 53.

[2]. المصدر نفسه، ص: 220.

[3]. المصدر نفسه، ص: 244.

[4]. أصول البحث: عبد الهادي الفضلي، ص: 54.

قبال العقل لدى الفلسفة، كما ويكون الكشف والمشاهدة أداة تلق واستلهام في قبال البرهنة والتفكير"[1].

وإذا كان المنهج يكتسي أهميته الحقيقية من خلال دوره في إطار علاقته بالمعرفة، فالمنهج العرفاني يتميز بكونه منهجا ذوقيا؛ " يقوم أساسا على تذوق طعم المعرفة مثلما يتذوق الحيوان طعم الأشياء، ففي هذا المنهج يكون التحسس تحسسا مباشرا بموضوع المعرفة، بخلاف ما عليه طريقة العقل التي تجرد الصور من موضوع المعرفة وتؤسس لها علما حصوليا هو عبارة عن إدراك غير مباشر للموضوع[2].

بذلك تكون المعرفة المنبثقة عن المنهج العرفاني المحض مختلفة اختلافا جذريا عن المعرفة الناتجة عن المنهج العقلي، لأنها ناتجة عن مكاشفة وعيان لا عن دليل وبرهان، ويتفق العرفاء بأنها تتحقق بحلول المعنى أو الخاطر في القلب لكنهم يختلفون في كيفية التمييز بين الصحيح منها والكاذبة.

وتقوم المعرفة العرفانية على التزكية الرياضة الروحية كمنهج للكشف عن الحقيقة، لذا يطرح السؤال: هل يمكن اعتبار المعرفة القائمة على العرفان مصدرا للمعرفة العقائدية والتشريعية؟

إذا كان المنهج التاريخي يستدل على معرفته بالعينة التاريخية، والمنهج العقلي يستدل على معرفته بالانسجام المنطقي، والمنهج التجريبي يستدل على معرفته بالحس أو المشاهدة، فإن المنهج العرفاني لا يسعه الاستدلال على ما يدعيه من معرفة منتجة، وفي ذلك يقول أبو حامد الغزالي: "من ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة"[3] وبالتالي لا يسعنا نحن أيضا التسليم للعارف أو تكذيبه فيما ينكشف له، وتعتبر معرفته مجرد أخبار لا نملك طريقة للتأكد من صدقها لسبب بسيط وهو أنها ليست استدلالية.

المنهج التجريبي:

يعتبر المنهج التجريبي من أشهر المناهج في الحقل العلمي وأهمها على الإطلاق، حتى أنه صار يعرف غالبا

[1] . مدخل إلى فهم الإسلام: يحيى محمد، ص: 226.

[2] . المصدر نفسه، ص: 229.

[3] . المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال: أبو حامد الغزالي، الناشر: دار الأندلس للطباعة والنشر، لبنان . بيروت . الطبعة السابعة (1967)، تحقيق: جميل صليبا، كامل عياد، ص: 68.

بالمنهج العلمي للبحث[1]، وذلك لأنه أقرب المناهج إلى اليقين والموضوعية وأوضحها طريقة في البحث عن الحقيقة واكتشافها وتفسيرها والتنبؤ بمستقبلها والتحكم فيها.

"وكانت نشأة هذا المنهج العلمية قد تمت في القرن السابع عشر على يد فرانسيس بيكون (Francis Bacon) بتأليفه كتابه المعروف بـ (الأورگانون) الذي بدأ العمل فيه منذ سنة 1608 ، ثم الجديد (Nouvel Organum) عدل فيه 12 مرة، ونشره نشرة نهائية في سنة 1620 م وكان هذا الكتاب نقطة التحول في تاريخ أوروبا العلمي[2]، وسيطر (بسببه) المنهج الإستقرائي سيطرة كاملة على مناهج العلماء في العلوم الطبيعية ...ثم طبق - مع تعليلات خاصة - في العلوم الإنسانية وقد ركز وأكد بيكون على (ضرورة تخليص العلم من شوائبه الدينية) كذا وضرورة إخضاعه بكلياته وجزئياته للملاحظة العلمية. وبمعنى آخر: يجب أن يقوم العلم على أساس وضعي بعيد كل البعد عن كل تأثير ديني أو ميتافيزيقي ثم رست قواعد هذا المنهج رسوا وثيقا ومكينا في القرن التاسع عشر عندما أصدر جون استيوارت مل (John Stuart Mill) كتابه (مذهب المنطق) (A system of logic) وتم - من بعد - بسببه فصل العلم عن الفلسفة والدين، وقصر اعتماده على المنهج التجريبي فقط"[3].

1 . تعريفه:

قد نلاحظ الاختلاف الواقع بين الباحثين في صياغتهم لتعريف المنهج التجريبي لكن يمكننا أيضا ملاحظة التشابه والتقارب بينها إلى درجة تطابق المدلول في بعضها، ذلك لأن تعريف المنهج التجريبي يفرض استلهام عناصره الدلالية من الخطوات التي تميزه عن غيره من المناهج فهو: "منهج يسمح بعرض الفرضية للاختبار في ظروف معينة بحيث يقوم الباحث أثناء ذلك بتعديل مواصفات المتغير لتحديد تأثيره الذي يمارسه على متغير آخر"[4]. هذا التعريف

---

[1] .. La recherche en sciences sociales et humaines : guide pratique, méthodologie et cas concrets: Zihisire, Modeste Muke. L'harmattan. octobre 2011. P.59 أنظر أيضا: مناهج البحث في الدراسات الدينية لأحمد فرامرز قراملكي، ص354.

[2] . فرانس بيكون ساهم بشكل كبير في إرساء دعائم المنهج التجريبي في العصر الحديث، لكنه لم ينشئه ، إذ المنهج التجريبي هو نتاج تراكمات معرفية قديمة جدا قدم التجربة الإنسانية.

[3] . أصول البحث: عبد الهادي الفضلي، ص: 55 . 56.

[4] . La recherche en sciences sociales et humaines : guide pratique, méthodologie et cas concrets: Zihisire, Modeste Muke. L'harmattan. octobre 2011. P.59

يرتكز أساسا على مرحلة (التجربة) التي تميز المنهج التجريبي عن غيره من المناهج، ويعرف أيضا بأنه: "البحث الذي ينطلق من الملاحظة الدقيقة للأحداث لتحرير فرضية تخضع لسيطرة التجربة، بغرض الوصول إلى معرفة القانون العام للظواهر"[1]، فهذا التعريف يصف مراحل المنهج التجريبي (الملاحظة، الفرضية، التجربة، القانون).

تمييز المنهج التجريبي عن المناهج الأخرى:

من خلال التركيز على تعاريف المنهج التجريبي يمكن استخلاص جملة من المميزات التي تميزه عن غيره من المناهج نذكر في ما يأتي أهمها:

1. تعاظم دور الباحث بحيث يتجاوز المنهج الوصفي للظاهرة إلى إعادة تشكيلها وإحداث تغييرات معينة عليها، ثم العودة إلى ملاحظة النتائج الحاصلة، وتدوينها بدقة و تحليلها و تفسيرها. وهذا لا يتأتى إلى في المنهج التجريبي.
2. يستند المنهج التجريبي من بداية التأسيس للبحث وحتى نهاية الاستنتاج إلى وسيلة الملاحظة الموضوعية، وبالتالي فالنتائج المحصل عليها منها تفرض نفسها من الخارج على العقل بقوة المشاهدة الحسية فتبهته، فلا يحتاج معها إلى براهن أو استدلال، وهي الميزة التي اكتسب بها المنهج التجريبي مصداقية ووثوقية أكثر من المناهج العلمية الأخرى.
3. من أهم مميزات المنهج التجريبي إخضاء الموضوع المقصود بالبحث (للتجربة)، بهدف استقصاء العلاقات السببية المسؤولة عن تشكيل الظاهرة أو التعرف على أثر كل متغير من متغيرات الحدث ومدى تأثيره فيها، وبغية الوصول إلى هذا الهدف يضطر الباحث إلى إحداث تجارب متكررة يعيد فيها تشكيل الظاهرة وتسجيل ملاحظاته عليها، بحيث في كل مرة من تلك التجارب يقوم بتغيير متغير معين ويبقي العوامل الأخرى ثابتة ثم يدون ملاحظته ودراسته، و بمثل هذا الإجراء المعملي نستطيع اكتشاف السبب الحقيقي للظاهرة، ودور كل عامل أو متغير فيها، ودرجة تأثيره عليها، كما يكننا التحكم في النتائج بدقة والتنبؤ بمستقبل الظاهرة أو بالاحتمالات الممكنة لتغييرها.
4. إمكانية تكرار التجربة "في ظل نفس الظروف مما يساعد على تكرارها من قبل الباحث نفسه أو

[1]. المصدر نفسه.

باحثين آخرين للتأكد من صحة النتائج"[1].

بنية المنهج التجريبي:

للمنهج التجريبي خطوات راسخة ثابتة تشكل معالمه وتحدد بنيته بالنسبة لجميع المواضيع والبحوث وهي كما يأتي:

أولا: الملاحظة Observation :: وهي من أهم خطوات المنهج التجريبي إذ عليها تتأسس المراحل الأخرى وتتضمن مشاهدة الحدث أو الظاهرة الخارجية وتوصيفها وصفا دقيقا على النحو الذي تبدو عليه طبيعيا دون محاولة التأثير عليها أو تفسيرها.

ثانيا: الفرضيات Hypothèse: وهي عبارة عن افتراضات محتملة وحلول مقترحة مؤقتة، فبعد الملاحظة والمشاهدة العلمية تأتي خطوة وضع الفرضيات الممكنة من أجل اكتشاف الأسباب المحركة للظاهرة واستخراج القوانين والنظريات التي تفسر الظواهر المتشابهة. وهي خطوة لا تقل أهمية عن سابقتها لأنها تتحكم في عملية سير البحث واستخلاص النتائج النهائية بما تشمله هذه الأخيرة من نظريات وقوانين تفسر الظاهرة أو الواقعة.

ثالثا: التجربة L'expérimentation: بعد خطوة إنشاء الفرضيات الممكنة، تأتي خطوة نقد وتقييم وتحقيق الفرضيات بواسطة عملية التجريب، وهذه الخطوة هي جوهر المنهج التجريبي وبها سمي، فبها يمكن اختبار الفرضيات الموضوعة سلفا لإثبات ما هو سليم مما هو خاطئ منها، لكن التجربة في المنهج التجريبي لها طريقتها التي تجعل الموضوع خاضعا للسببية، حيث "يتم خلالها معالجة متغير أو أكثر بتغيير محتواه عدة مرات، ويسمى هذا المتغير بالمتغير المستقل، إن هذه العملية تسمح بدراسة آثار المتغير المستقل في المتغير الذي يتلقى تأثيره والمسمى بالمتغير التابع"[2].

حيث أن المتغير المستقل Independant Variable هو ذلك المتغير الذي نفترض أنه يحدث التأثير في المتغير التابع ويمكن التحكم به لقياس تأثيره في المتغير التابع.

والمتغير التابع Dependant Variable هو ذلك المتغير الذي يتأثر بالمتغير المستقل ويكون تابعا له.

"ولكي يتمكن الباحث من اختبار العلاقة بينهما، لابد له من استبعاد وضبط تأثير العوامل الأخرى على

---

[1] . مناهج وأساليب البحث العلمي النظرية والتطبيق: ربحي مصطفى عليان/ عثمان محمد غنيم، الناشر: دار صفا للنشر والتوزيع ، الأردن . عمان . الطبعة الأولى (1420هـ/2000م)، ص53.

[2] . منهج البحث العلمي في العلوم الإنسانية تريبات عملية: موريس أنجرس، ص102.

الظاهرة قيد الدراسة لكي يتيح المجال للعامل المستقل وحده بالتأثير على المتغير التابع"[1]، لأن عوامل أو متغيرات أخرى يمكن أن تتدخل في التجربة وتضر بالدراسة الدقيقة لآثار المتغير المستقل في المتغير التابع. "والمطلوب في هذه الحالة إذاً، هو عزل المتغيرات الخارجية والحفاظ على هذه العوامل ثابتة...وللتقليل من آثار العوامل الخارجية المرتبطة بالعناصر، يسعى المنهج التجريبي إلى توزيع العناصر إلى مجموعتين متساويتين حسب مقاييس مختارة مثل السن، التعليم أو حتى المهنة، ونقوم بعد ذلك بإدخال تغييرات على المتغير المستقل لدى مجموعة واحدة، والتي تسمى عادة **بالمجموعة التجريبية**، ثم نقوم بعد ذلك بإجراء مقارنة بين نتائج هذه المجموعة ونتائج المجموعة الأخرى، وهي ما تسمى **بمجموعة الشاهد** أو مجموعة المراقبة والتي لا يتم إدخال أي تغيير عليها"[2].

فالمنهج التجريبي إذاً، يتطلب اتباع أساليب خاصة من أجل ضمان عدم تأثير عوامل أخرى في المتغير التابع.

"وأكثر من ذلك ينبغي أن تكون المتغيرات قابلة للقياس لأن الباحث يستعين بالإحصاء في تحليل هذه النتائج، وبالتالي: فإن المنهج التجريبي مثل أي منهج آخر، لا يمكن أن يطبق في دراسة أية ظاهرة"[3].

رابعا: الدراسة والتفسير: وفيها يتم معالجة النتائج بتطبيق النظريات والقوانين على المعطيات .

المنهج التجريبي في العلوم الإنسانية:

نعم صحيح إن أصل المنهج التجريبي هو العلوم الطبيعية، والهدف منه هدف مادي بالدرجة الأولى، إلا أن الكثير من العلوم الأخرى حاولت جاهدة استعماله في دراساتها وبحوثها، فأثمر ذلك تطورا هائلا ونموا معرفيا معتبرا، غير أنها بقيت أكثر محدودية في العلوم الإنسانية لأسباب متنوعة منها:

1. أن ظواهر العلوم الإنسانية لا تحتمل القياس دائما كما يتطلبه تحليل النتائج التجريبية.
2. أن موضوع الدراسة فيها هو الكائن البشري، ولا يخفى أن الأخلاقيات وخصوصية الأفراد تحول دون إجراء تجارب عليهم إلا بموافقتهم.
3. الظواهر الإنسانية هي ظواهر مركبة في أغلبها بحيث يصعب فصل عواملها لدراسة العلاقة الرابطة بين السبب وأثره.

---

[1] . مناهج وأساليب البحث العلمي النظرية والتطبيق: ربحي مصطفى عليان/ عثمان محمد غنيم، 52.

[2] . منهج البحث العلمي في العلوم الإنسانية تربيات عملية: موريس أنجرس، ص103.

[3] . المصدر نفسه، ص102.

تطبيق المنهج التجريبي على الدراسات القرآنية.

سبق وأن قلنا أن الدراسات القرآنية هي جميع البحوث التي تجعل من القرآن محورا وموضوعا للبحث والتحقيق، وهي نوعان: علوم في القرآن وعلوم حول القرآن، فإذا ما أردنا تطبيق المنهج التجريبي على الدراسات القرآنية فسنحتاج حتما إلى تطبيقه على هذين النوعين من البحوث، وفيما يلي دراسة نظرية لهكذا محاولة.

إن من سمات هذا النوع من الدراسات أنها تتعامل مع القرآن بوصفه رسالة، مما يتيح هذا الوصف طرح تساؤلين اثنين: ماذا يقول صاحب الرسالة؟ ولماذا يقول ذلك؟[1]

ونلاحظ أننا لا نطرح في مثل هذه العلوم سؤالا حول صدق الرسالة، هل هذه الرسالة هي فعلا من عند الله؟ إلا بقدر ما يعيننا على الفهم، وهي حالة يمكن تفهمها إذا علمنا طبيعة العلاقة بين المتكلم والمتلقي.

وعلى هذا الأساس فإن التساؤلين الذين أشرنا إليهما آنفا: ماذا يقول؟ ولماذا يقول ذلك؟ يشكلان محورين هامين هما منبع الدراسات القرآنية.

المحور الأول: محور ماذا يقول؟ ويتضمن كيفية قراءة الرسالة قراءة صحيحة سليمة، غير أن القراءة لا تعني فقط "تحليل (رموز، صورة أو صوت) واستخلاص المعنى منها"[2]، بل إنها تعني في مدلولها الهرمنيوطيقي (الفهم)، لأن عملية القراءة هي نفسها ظاهرة تأويلية يقوم فيها العقل ببناء الأفكار من الألفاظ ومعانيها، وهذه هي أولى معاني الهرمنيوطيقا[3].

لهذا الاعتبار فإن القراءة ليست مجرد تلاوة أو فك للرموز، بل هي مرحلة من مراحل الفهم والتأويل، وعلى هذا الأساس تندرج تحت سؤال: ماذا يقول؟ كل البحوث والدراسات التي تحقق هذا المحور، كتلك البحوث التي تهتم بجمع القرآن ورسمه وتدوينه وكيفية قراءته وإدراك بلاغته وبيان كنايته وتعريضه ومجازه واستعارته ومتشابهه ومحكمه وتقديمه وتأخيره والتفاته...الخ من البحوث التي تساعد على قراءة المتلقي للرسالة بشكل صحيح يكشف عما يريده

---

[1] . انظر مناهج البحث في الدراسات الدينية: أحمد فرامرز قراملكي، ص78.

[2] . تمثل عملية القراءة مفارقة ملغزة؛ فأنت لكي تقرأ لابد لك من أن تفهم مقدما ما سيقال، ولكن هذا الفهم ينبغي أن يأتي من القراءة، ولكي تفهم ما قلته جرب أن تقرأ رموزا كورية أو صينية.

[3] . أي الهرمنيوطيقا بمعنى التلاوة، انظر كتاب فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطيقا . نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر . لعادل مصطفى، الناشر: رؤية للنشر والتوزيع، مصر . القاهرة . ط. الأولى (2007م)، ص35.

المتكلم.

تطبيق المنهج التجريبي على هذا النوع من البحوث:

بداية لابد من الاعتراف بأن المنهج التجريبي كغيره من المناهج لا يمكن أن يصلح لكل الظواهر المادية ناهيك عن كل المواضيع القرآنية، وذلك إما لعدم إمكان التجربة، أو لعدم إمكان قياس المتغير المستقل، أما إذا ما أردنا معرفة مدى صلاحية تطبيق المنهج التجريبي على ما سلف من الدراسات القرآنية فيجب أولا أن نبحث في خضم تلك العلوم عن وصف الظواهر التي تتسم بالملاحظة أو المشاهدة الحسية.

الواقع ليس الباحث في كتاب الله التكويني هو وحده ينطلق من الملاحظة، بل إن الباحث في العلوم القرآنية قد ينطلق هو أيضا من المشاهدة الحسية للخطاب في كتاب الله التدويني، وقد يدقق نظره في النص القرآني ليكتشف مسائل تتعلق باختلاف رسمه مثلا أو بترتيب ألفاظه وآياته، أو بتشابهها وتكرارها، أو باختلاف المعاني والدلالات فيها، أو باتفاقها وتناسبها...وغير ذلك من المسائل الكثيرة التي تتأسس بداية من الملاحظة.

كما لا نجد أدنى صعوبة في صياغة الفرضية المناسبة لأي موضوع أو مسألة، لكن ما سنواجه كمشكلة حقيقية هو إخضاع النص القرآني للتجربة، وقد علمنا أن التجربة في المنهج التجريبي تتميز بخاصية المتغير المستقل والمتغير التابع. فهل بإمكاننا إذاً إخضاع النص للتجربة؟

إن هذه العلوم لا يمكن إخضاعها للتجربة المخبرية، لأسباب متعددة

1. إذا كانت الظواهر الإنسانية يتعذر إخضاعها للتجربة تقديرا للأخلاقيات الإنسانية واحتراما لخصوصيات الأفراد، فإن الظواهر القرآنية كذلك لا يمكن تطبيق التجربة عليها تقديرا لقداستها، واحتراما لخصوصيتها.
2. يتعذر استحداث متغير مستقل في النص القرآني لمعرفة سبب ظاهرة ظرب المثل مثلا، أو سبب ظاهرة المتشابه، أو سبب ظاهرة التكرار، أو سبب ظاهرة النسخ، أو سبب ظاهرة القسم، أو سبب ظاهرة المجاز، أو سبب ظاهرة الالتفات... الخ.
3. وحتى لو أمكن استحداث متغير مستقل فلا يمكن قياس نسبة التأثير في النص للكشف عن العلاقة الرابطة بين المتغير المستقل والمتغير التابع.

لكن يمكن تطبيق المنهج الشبه تجريبي عليها، وهو المنهج الذي يعتمد الملاحظة على التجربة الطبيعية كما هي دون محاولة إدخال أي من التغييرات عليها، وبالتالي يمكن اعتماد الملاحظة في الدراسة وتدوين النتائج ثم مناقشتها

واستخلاص القوانين منها، وهذا هو المنهج المعمول به في مثل هذه الدراسات إلى حد ما.

المحور الثاني: محور لماذا يقول ذلك؟

ويتضمن إدارك المطلوب من الرسالة بعد تحقيق القراءة الصحيحة، وهو المحور الذي على أساسه تم تقسيم محتوى القرآن إلى ثلاثة أقسام: أحكام، أخلاق، أخبار، مع التنويه بأن الأحكام لا تتضمن الشريعة فقط بل تجمع معها الأحكام المعرفية الخاصة بالتوحيد. والتي تعرف بالعقيدة، وبالتالي فإن آيات القرآن تتوزع على ثلاثة أقسام:

1. واجبات عملية ومعرفية
2. قيم وأخلاق.
3. أخبار وأمثال.

إن تعامل العلماء مع أقسام القرآن الكريم الثلاثة للعثور على إجابة حيال السؤال المذكور: لماذا يقول ذلك؟ أنتج علوما هي التي نعتناها فيما سبق بـ: (علوم في القرآن)، وهي:

- علم الفقه: ويختص بواجبات الإنسان العملية مع ربه وأمثاله من بني البشر.
- علم العقيدة: ويختص بواجباته المعرفية مع ربه وأمثاله من بني البشر.
- علم الأخلاق والسلوك: ويختص بواجبات الإنسان الأخلاقية مع ربه وأمثاله من بني البشر.

هذه هي العلوم الرئيسية التي تجيب على السؤال المذكور، إذا ما نظرنا إلى القرآن بأنه رسالة. أما بقية العلوم الأخرى التي هي في القرآن كعلم القصص القرآني وأمثاله وأقسامه... أو مما ذكرناه من علوم حول القرآن فهي علوم آلة يتوصل بها إلى العلوم الثلاثة الرئيسية، التي تجيب على سؤال المتلقي: لماذا يقول ذلك؟

وإذا ما ألقينا نظرة في تاريخ العلم الديني الإسلامي فسنجد أن العلمين الأولين (علم الفقه وعلم العقيدة) قد أخذا حظهما الأفر من البحث والدراسة، ولا زال الإقبال عليهما كذلك إلى اليوم، بيد أن علم الأخلاق كما يقول أحمد فرامرز قراملكي: "تعرض إلى إهمال شديد من هذه الناحية، فجرى تجاهله من قبل الأوساط العلمية والباحثين في الفكر الديني، لم يتكون شعور بالحاجة إلى تجديد هذا العلم وتأهيله لتلبية الاحتياجات المعاصرة ولا سيما في مجال الأخلاق المهنية، ورغم الحاجة إلى أخلاق مهنية مجدية في مجال الصناعة والتجارة والمؤسسات الحكومية والطبية والرياضية، إلى جانب مؤسسات الإدارة والنظام القضائي، غير أننا لا نلمح حتى الآن برامج بحثية منظمة تتوفر في تلك المجالات على نحو واف، لا يوجد في الجامعة اتجاه أو فرع يحمل اسم الأخلاق، كما ليست هناك مجلة أو دورية

علمية . بحثية تصدر في هذا الحقل"[1].

إن عدم اهتمام الباحثين بهذا العلم، خلق فجوة واسعة بين الواقع وقسم كبير من الرسالة القرآنية، وفتح المجال لعدة تساؤلات:

إلى أي مدى يمكن أن يساهم المنهج التجريبي في تحديد تداول الأوساط العلمية لعلم الأخلاق؟

كيف يمكن أن نجعل من الدراسات القرآنية ميدانا خصبا للدراسات النفسية ؟

هل باستطاعتنا الاستفادة من النظريات والقوانين العلمية لاكتساب وثوقية أكثر؟

لقد علمنا فيما سبق أن المنهج التجريبي يقوم على أساس التتبع والملاحظة، وبالتالي فالباحث الحاذق بإمكانه ملاحظة العديد من الظواهر السلوكية للأفراد والجماعات خاصة ضمن مجال علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأنتروبولوجيا، كما أننا نعلم أيضا الغاية الهدائية للقرآن الكريم والتي عبرنا عنها بسؤال: لماذا يقول ذلك؟ فعلى هذا الأساس نأمل بعث أبحاث علمية تجريبية ترتكز على الخبرات المعرفية لعلم النفس وعلم الاجتماع.

إن ما ندعو إليه يكتسب أهمية فائقة من خلال غياب البعد الأخلاقي عن ميدان البحث والدراسة، وانحصار الدراسات القرآنية في البحوث النظرية والتعريفية، فالبحث عن علاقة الصلاة بالاستقرار الأسري، أو بقلة نسبة الطلاق مثلا، أو علاقة الدعاء بالتماثل للشفاء، أو علاقة قراءة القرآن بقلة الاكتئاب، أو علاقة الإيمان بالتوازن النفسي، أو علاقة صلاة الصبح بالأداء المهني، أو علاقة القيلولة بالتحصيل العلمي، أو علاقة الهدية بالمودة، أو ظاهرة ا لتطفيف في الميزان، أو ظاهرة الانتحار، أو ظاهرة ظرب الأصول، أو ظاهرة العنوسة، أو ظاهرة الزواج المتأخر، أو ظاهرة التهرب المدرسي...الخ كل هذه البحوث وما شابهها هي بحوث أساسها الملاحظة الميدانية ولذلك يستطيع الباحث تجاوز الدراسة النظرية والتعريفية، ليحقق مواصفات المنهج التجريبي العلمي فيلقى بحثه مصداقية أكبر وقبولا أوسع في الأوساط العلمية والسياسية.

فمثلا لو قام الباحث بدراسة أثر صلاة الصبح بالأداء المهني، فإنه سيقوم بتقسيم العمال إلى فئتين عشوائيا ثم يعين عشوائيا أيضا الفئة التجريبية والفئة الضابطة أو المراقبة، ويدخل المتغير المستقل الذي هو هنا صلاة الصبح على الفئة التجريبية، ويترك الفئة الظابطة أو الشاهدة دون إدخال أي تغيير عليها، مع محاولة ضبط المتغيرات وعدم تسرب أي متغير آخر أثناء التجربة، ثم يأخذ في الملاحظة وقياس التغير الحاصل، وفي الأخير يجمع المعطيات، ويدون نتائجه ويعطي تفسيراته، ويستخلص نظرياته وقوانينه.

[1] . مناهج البحث في الدراسات الدينية، ص: 84.

نعم إن عملية البحث وفق هذا المنهج ليست سهلة، لكنها كلما كانت أكثر انضباطا ودقة كانت أكثر مصداقية ووثوقية، فقد يتطلب بحث المنهج التجريبي معرفة واسعة بطرق الملاحظة والمراقبة، وطرق إجراء المقابلة، وتقنيات الاستمارة، واختبارات التجريب، وتقسيم المجموعات، وكيفية اختيار العينة، واستخدام النماذج والمناهج الإحصائية لترتيب المعطيات وتحليلها...

لذلك لم يعد المنهج التجريبي مقتصرا على العلوم الطبيعية بل صار المنهج الأساسي في كثير من الدراسات الإنسانية، كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلوم الإعلام والاتصال وعلوم الإدارة والاقتصاد وعلم الانتروبولوجيا... ولما لا الدراسات القرآنية.

فهرس المصادر والمراجع

1. . أصول البحث: عبد الهادي الفضلي، الناشر: دار المؤرخ العربي، لبنان . بيروت . ط. الأولى (1412هـ/1992م).
2. . علوم القرآن: محمد باقر الحكيم الناشر: مجمع الفكر الاسلامي، إيران . قم . الطبعة: الثالثة (1417هـ).
3. فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطيقا . نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر . لعادل مصطفى، الناشر: رؤية للنشر والتوزيع، مصر . القاهرة . ط. الأولى (2007م)،
4. . مدخل إلى فهم الإسلام (الفكر الإسلامي: نظمه...أدواته...أصوله): يحيى محمد، الناشر: دار الانتشار، لبنان . بيروت . الطبعة الأولى (1999م)، ص:46.
5. . مناهج البحث في الدراسات الدينية لأحمد فرامرز قراملكي، معهد المعارف الحكمية، لبنان . بيروت . الطبعة الأولى (1425هـ/ 2004م).
6. . مناهج العلوم الاجتماعية . منطق البحث في العلوم الاجتماعية .: مادلين غراويتز، الناشر: المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، سوريا . دمشق . ط. الأولى (1993)، ترجمة: سام عمار.

7. مناهج وأساليب البحث العلمي النظرية والتطبيق: ربحي مصطفى عليان/ عثمان محمد غنيم، الناشر: دار صفا للنشر والتوزيع ، الأردن . عمان . الطبعة الأولى (1420هـ/2000م).

8. . المنطق الحديث ومناهج البحث: محمود قاسم، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، مصر . القاهرة . الطبعة الثانية (1953).

9. . المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال: أبو حامد الغزالي، الناشر: دار الأندلس للطباعة والنشر، لبنان . بيروت . الطبعة السابعة (1967)، تحقيق: جميل صليبا، كامل عياد.

10.. منهج البحث العلمي في العلوم الإنسانية . تدريبات عملية . : موريس أنجرس، الناشر: دار القصبة للنشر، الجزائر . بيروت . ط.(2008م).

11.. نصوص في علوم القرآن: لعلي الموسوي الدارابي، الناشر: مجمع البحوث الإسلامية, إيران . مشهد . (2002)

12... La recherche en sciences sociales et humaines : guide pratique, méthodologie et cas concrets: Zihisire, Modeste Muke. L'harmattan. octobre 2011.